قرأت العدد الماضي من "الآداب"

الأبحاث

بقلم حسين مروه

***

ما أدري : هل اجري على ما جرت عليه « الآداب » من اطلاق كلمة « الابحاث» على كل ما ينشر فيها ولا يندرج في بابي الشعر والقصص ، ام اجري على ما تقتضيه الدقة من اختصاص هذا الاصطلاح (الابحاث) بالمعالجات الكتابية ذات النسق العلمي والنظام الفكري المنهجي المتكامل ، ثم تسمية غيرها بالمقالات مثلا ؟..

لقد واجهني السؤال ، بالفعل ، مذ علمت ان سأكون صاحب هذه المسألة مباشرة في هذا العدد . ولم املك جوابا من عندي ، فسألت الصديق الدكتور ادريس ، واذا كلمة « الابحاث » تعني في « الآداب » اوسع مما تحتمل. فجريت هذا المجرى ، ولكن على غير اقتناع ..

اظن ان المسألة ليست « لفظية » سطحية ـ كما قد يتبادر للاذهان ـ وانما هي ، اولا ، مسألة « التوظيف » العلمي الدقيق لرصيد لغتنا العربية الضخم في مجالات التعبير عن مختلف الشؤون الحضارية المعاصرة ، وهي ثانيا ـ وبالمستوى نفسه ـ مسألة موقفنا الحضاري الواعي من مفاهيم الاشياء والدلالات والافكار والقضايا . وذلك بوضع الحدود المميزة لكل منها ، ومفارقة اساليب التعميم العفوي او الفوضوي في تفكيرنا وتعبيرنا معا . فقد حان لنا ان ندخل عصرنا ونحن من أهله لا في غربة عنه ..

فهل ـ تراني ـ بالغت في تقدير الامر اكثر مما يلزم ؟..

***

.. ولنبدأ الجولة ، الان ، مع صاحب « البحث » الاول في العدد الماضي : اسحق دويتشر ، « الكاتب الماركسي اليهودي الاصل » كما قدمته « الآداب » . وقد جاء في تقديمها اياه ، كذلك ، انه « من الاصوات النادرة التي ارتفعت في الغرب دفاعا عن حق العرب واستنكارا للعدوان الاسرائيلي » .

وانما اذكر هذا التقديم بنصه لاوافق « الآداب » كل الموافقة على الترحيب بهذا الصوت «الغربي الموضوعي» ـ وهذا التعبير جاء في العنوان الاول للحديث ـ ثم لاخالفها بأنه « من الاصوات النادرة » في الغرب . فهل كانت « نادرة » حقا تلك الاصوات التي ارتفعت هناك دفاعا عن حق العرب واستنكارا للعدوان الاسرائيلي ـ الامبريالي الاثيم ؟.

احسب ان الدكتور ادريس نفسه ادرى بأن الامر لم يكن كذلك . وهذه مسألة ينبغي لنا ان نعرفها ونؤكدها لانفسنا كي لا نبقى رهن الشعور السائد بأننا في عزلة عن الرأي العام العالمي بوجه عام والغربي بخاصة . فان ذلك قد يورط الكثيرين منا في مزالق اليأس من جهة ، وقد يوقع الاخرين ـ من جهة ثانية ـ في النظر الجانبي الضيق لقضيتنا العربية التحررية برمتها ، وفي صلبها قضية فلسطين بالذات ، بحيث نحسب انها قضية منفصلة ومنعزلة عن قضية التحرر الوطني الشاملة في عالمنا وعن قضية الحركة الثورية العالمية الاكثر شمولا .

لقد كانت الاصوات التي ارتفعت في الغرب دفاعا عن حق العرب واستنكارا للعدوان الاسرائيلي ، أكثر وأقوى مما يبدو تصوره عندنا . ولا سيما الاصوات التي ارتفعت في فرنسا ذاتها ، اي البلد نفسه الذي ارتفع فيه صوت اسحق دويتشر .

كانت اصوات القوى التقدمية في الغرب كله ، واصوات الطبقة العاملة هناك ، اصواتا جهيرة فاعلة ، وربما كان اثر الموقف الباسل الذي وقفته الطبقة العاملة الفرنسية بالخصوص نوعا من الانعطاف في اوساط الرأي العام الفرنسي . ولعلنا لا نزال نذكر المبادرات الطيبة التي أبداها الحزب الشيوعي الفرنسي فور وقوع العدوان الاسرائيلي ـ الامبريالي ، سواء ببياناته الصادرة عن هيئاته العليا المسؤولة ام بالافتتاحيات والمقالات التي كانت تظهر يوميا تقريبا ، طوال الاسابيع الاولى التي اعقبت حرب ٥ حزيران ، في جريدته اليومية « الاومانيتية » الناطقة باسم لجنته المركزية . وقد يذكر الذين تتبعوا هذه المبادرات ان الحزب الشيوعي الفرنسي حين اقدم على الانحياز المشروع الى جانب العرب حينذاك ، اقدم وهو يعلم انه سيلقى مواجهة سلبية عنيفة من قبل الرأي العام الفرنسي ، ولكنه صمد للمواجهة حتى كسب الجولة بعد ان احدث انعطافا في موقف الرأي العام هناك . وكذلك ينبغي ان لا ننسى مواقف الحزب الشيوعي الايطالي ومبادراته العملية في هذا المجال ، وهكذا شأن سائر القوى التقدمية في اوروبة . ثم هل ننسى ذلك الفريق الكبير من المثقفين الفرنسيين الذين وجهنا اليهم من هنا ، من بيروت ، رسائل الشكر على مواقفهم القوية الصريحة في تأييد حقنا العربي واستنكار العدوان الاسرائيلي ـ الاستعماري ؟.

نرجو ان لا يكون موقف جان بـول سارتر ، ومواقف الاشتراكيين اليمينيين الاوروبيين ، ولا سيما الفرنسيين ، مصدر هذا الشعور الذي نفهمه مـن كلمـة « الاصوات النادرة » ..

***

وبعد ، فنعود الى حديث الكاتب اسحـق دويتشر ، مؤكدين موافقتنا « الآداب » على الترحيب بهـذا الصوت الغربي الموضوعي . وهـو ـ بالفعل ـ صوت يتسـم بالموضوعية من حيث الموقف تجاه الحق العربي في معركته التي يصطرع فيها مع باطل اسرائيل وعدوانيتها . وظاهر ان موقف السيد دويتشر ، في حديثه هذا ، ينطلق مـن تفهمه الصحيح ان المعركة بيننا وبين اسرائيل انمـا تؤلف جبهة من جبهات المعركة العالمية الكبرى في عصرنا بيـن قوى التحرر والتقدم في العالم كله وبين قوى الامبريالية والاستعمار والصهيونية . ولقد اوضح ، في هذا الحديث ، صحة منطلقه النظري في ادراكه عمـق الوحدة العضوية بين الامبريالية والصهيونية ووليدهما اسرائيل .

في هذه الحدود ، بصورة عامة ، لا نكتفي بالترحيب بهذا الصوت الغربي الموضوعي ، بل نثني كذلك على الروح الايجابية التي تسري في ثنايا الحديث كله . ولكن هـذا لا يمنعنا من ايضاح بعض المآخذ المبدئية فـي الحديث ، لا ردا على الكاتب وقد صار في ذمة التاريخ ، بل تصحيحا للامور من حيث هي بذاتها ومـن حيث علاقتها بالقضية الباقية حية في مركز الصراع من حركة التاريخ المعاصر ، ولعلها ستبقى كذلك الى امد لا نعرف الان ، بدقة ، **متـى** ينتهي ، وان كنا نعرف ، بثقة ، **كيف ينتهي** ..

● **اول** هذه المآخذ على حديث السيد دويتشر انـه يضع حرب الخامس من حزيران فـي اطـار المنافسات والمنازعات الايديولوجية القائمة على الصعيد « العالمي » . ان وضع المسألة في هذا الاطار يوحي ـ بل يكـاد يكون تصريحا ـ بالغاء العوامل الموضوعية الداخلية التي تؤلف الاطار العربي لحركة الصراع بين العرب واسرائيل .. اي انه يلغي من الاساس ـ بضربة واحدة . جملة العوامل التي نبعت منها حركة التحرر العربية ، بـل حركة التحـرر الوطني والاجتماعي في « العالم الثالث » بجملتها ..

فهل صحح ، واقعيا ومبدئيا ، ان حـرب حزيران نشبت في اطار المنافسات والمنازعات الايديولوجية العالمية اي بيـن المعسكـر الاشتراكي ومعسكـر الامبرياليـة والرأسمالية ؟.. ام الصحيح ، واقعيا ومبدئيا ، انهـا نشبت بوصفها ظاهرة من ظاهرات الصراع الموضوعي القائم في قلب العالم العربي بين حركة التحرر العربية والثـورة العربية بكامها وبين القوى الرئيسية لعناصر الثورة المضادة لثورتنا العربية .. نعني بهـا قوى الاستعمار والصهيونية التي وضعت اسرائيل قاعدة لها في بلاد العرب لا من اجل ان تعوق مسيرة التحرر والتقدم في هذه البلاد وحسب ،

ـ التتمة على الصفحة ٧٠ ـ

الاغنية الى القنيطرة

يـا حمامـة
سقطت ، في الاسر ، جرحى
بيد الاعداء ، حيث الليل أفعى
حولها تلتف . هبهم زرعوا الافق ببارق
واشاعوا ، ان وجه الصبح في عينيك اضحى
حلما ميتا ودمعا
هب اصابـوا
قلبك الصخري ، وانتاشت حراب
صوتك الاخضر ، فالصوت وان امسى نثارا
في الصحارى
في حقول القمح ،
في الانهار ،
في الزنزانة السوداء ،
في كل مدينة .
فهو أشجار من الاحقاد تنمو في سكينة
ابدا تعطي ثمارا
فاملئي كل جراحاتك ملحا
يـا حمامـة
فسنأتيك ، سنأتيك ، نحيل الافق نارا
بغد ، مد صدور وبنادق
نهدم الاسوار ، نعطيك جناحين وصبحا .

صوفيا

عبد الستار الدليمي

القصائد

بقلم : الدكتور احسان عباس

***

الشاعر الحديث سجين المشكلة التاريخية وسيدها في آن معا : سجينها لانه لا يستطيع ان يتخطاها،وسيدها لانه يستطيع ان يتمثلها بوعي رحب عميق . وكل ما يصطنعه في نقلها من وسائل الرؤيا او الحلم ليس الا لبوسا ظاهريا ـ خفيفا كان او كثيفا لذلك الوعي العميق الرحب الذي تصبح القصيدة الحديثة دونه تمتمات موسيقية ضائعة في فراغ . ولما كانت قراءة الشعر الحديث كشفا عن طبيعة التفرد في ذلك الوعي ، كانت عملا تأمليا موشحا بالنظر المعاد والتقليب والاصرار ، ولم تكن بذلك استجابة سريعة عفوية او لا ارادية ، كالارجاع المنعكسة الناشئة عن التجاوب الحتمي بين الفعل ورد الفعل . ولهذا قد تكون وقفة القارىء امام القصيدة الحديثة فتحا او ترددا او عجزا . فاما الاول فلا حاجة بنا الى الحديث عنه لانه ان تحقق اغنانا عنه الحديث عما وراءه . واما التردد فانه صنعة لا يثبت استحكامها الا بعد ارادة المعاودة وتغيير الوسائل ، فاذا استحكمت بعد ذلك كله انضافت الى العنصر الثالث وهو العجز .

وللعجز مصادر وصور يتشكل فيها ، وليست جميعا مما يبعث على اليأس. فقد يكون العجز ناشئا عن الاخفاق في التصور ، او عن الوقوف دون بلوغ مرحلة الفهم الواضح . وهذان جداران كثيفان ، ولكن قيامهما في وجه القارىء يجب الا يؤدي به الى نفض يديه يائسا متشائما ، لان القدرة على التصور ليست من سمات القصيدة نفسها ، وانما هي من الخصائص التي يفترض توفرها في القارىء (او الناقد) ، وتربيتها ممكنة وان كانت عسيرة . ثم ان بلوغ مرحلة الفهم الواضح ـ او الوضوح المفهم ـ قد يكون مسعفا على التذوق ، ولكنه لا يصلح وسيلة نقدية في جميع الحالات ، فهذا النوع من العجز انما يصيب القارىء الذي تعود ان يسأل نفسه : ماذا يعني الشاعر هنا او هناك ، وهو سؤال مجتلب من خارج القصيدة وغير ضروري للحكم عليها .

وهناك ضروب اخرى من العجز اكتفي بذكر نموذجين آخرين منها : فقد يقبل القارىء القصيدة الحديثة على انها كل متكامل ولكن قبوله يقف به عند حد العجز عن استكشاف النتيجة . وتوضيحا لهذا الذي اقوله امثل بقصيدة « النقطة » للشاعر محمد سعيد الصكار . فالقصيدة تمثل نمو « بذرة » الرؤى وتمددها جذعا وفروعا وثمارا يغذيها ماء الحب ، ولكن ثمارها البرتقالية ليست شيئا سوى الحزن . ومن هذه « الشجرة » غصن منكسر (حزن آخر) في الصدر يتمنى الشاعر لو اسعفه فملأ السلال (أي حروف الكلمات) ـ بماذا ؟ ـ بالبرتقال الذي هو حزن ايضا « قبيل ان تشحب في راحتي الشموع » ، هي لهفة ولكن الى أي شيء ؟ وماذا يكون بعد العجز عن تحقيق هذه اللهفة ؟ الامنية لا تمثل الا ادراكا رومنطيقيا للحرمان ، ولا تنتج شيئا سوى ذاتها . لهذا اقول انني اقبل هذا الكيان الذي اكتسب وحدة جميلة عن طريق الصور (مع تناقضات خفيفة في داخله) ولكني لا ادري بعد ذلك اية علاقة بيني وبينه سوى محض التقبل . انه شمعة لا تضوىء الا على ذاتها ، ولكنها أعجز من أن تنير الطريق .

واصعب المواقف في نظر القارىء الحديث ـ ما دام عمله تأمليا يربط الاجزاء ويوحد المتفرقات ويتلمس الوحدة ويشارك في التجربة ـ هو وقوفه عند حد العجز عن التعليل . فأنت اذا بنيت بناء متكاملا استطعت ان تفسر ايثارك اللبن على الحجارة او جعلك النوافذ من الجهة القبلية بدلا من الجهة الشرقية ، واذا نقلت الصورة الى حيز الجسم الحي استطعت ان تجد ـ في يسر ـ تعليلا لوجود هذا العدد من الخلايا والغدد والاجهزة وان تدرك الانسجام القائم بينها ، وان تميز ما شذ عن الطبيعة السليمة بسبب من التورمات السرطانية . ولك ان تسأل نفسك وانت تقرأ قصيدة « دان ـ دان » للشاعر فواز عيد : ما العلة في ان يرقص شيخ ابن سبعين سنة والناس من حوله يرددون « دان ـ دان » ؟ ولم هذا الصدى الذي لا يفصح عن شيء ؟ ولم يختار الشاعر الاستحالة في العودة الزمانية مع ان طريقه الى العودة المكانية ممكن محتمل ؟ اهو تلذذ بالتعذيب ؟ ان الصمت الذي يواجه هذه الاسئلة هو الذي جعل القصيدة محض صورة خارجية لمنظر انسان مغترب يسأل بلهفة متى العودة الى بلده (الى الجنوب) فلا يجد الا الصدى المألوف في الاكف المصفقة والصيحة المألوفة عند اهل الجنوب « دان ـ دان » في رقصة (الشرح) . وتنتهي الرقصة نهايتها الطبيعية « فماتت من نحيب قدماه » ـ تنتهي الى الانهيار لانها بدأت نزوة غير طبيعية . اقول هذا بعد ان تقبلت الصورة ، بكل ما فيها من جور غير ضروري على السنين التي يئن تحتها الشيخ ، ومن تقابل بين لهفته الى السؤال ولهفة الصغار الذين يسألونه ببراءة « ماذا سيكون » ؟ ففيها من تموج « النحيب » الذي اصاب الناس والطبيعة معا ومن ترديدة الجوق ، ومن رقصة الذكريات نفسها مع الناس والاشياء ، ما يكفل لها انسجام منظر كامل . ولكن من ذا الذي يجد المتعة في رسم « العجز » الانساني ليقول للناس انه ينقل صورة واقعية ؟

ولعل اقسى وضع يرسم ابعاد العجز الانساني خروج الشاعر من دنيا المشكلة التاريخية التي اشرت اليها في اول هذا الحديث . ذلك لان المشكلة التاريخية (أي المشكلة الواقعة في نطاق تاريخي) لن تكون الا انسانية لحما ودما واعصابا ، ومن ثم لن تكون شيئا ينفي الصواب والخطأ في الفعل الانساني ليلجأ الى ما وراء الطبيعة او الى دنيا المعجزة. ومن هذا القبيل يكون احساس القارىء

جزيرة الجفاف

جريت في رحابها عشرين عام
أعطيت للرياح اروع الانغام
حتى جوادي مات في الطريق
خسرته في وحشة الظلام
ناديت بالدروب حيث لا رفيق
قد يستجيب للنداء
غير سكون الموت في الصحراء
طوفتها من الشروق للغروب
ظمئت يا لها من كارثه
تفتت القلوب
طويلة دروبها . وحالكه
طوفت حول الماء والافياء
وكلها موجودة لكنني بلا ضياء
حتى النجوم حولت شعاعها
وحزمت معي متاعها
وسافرت تبحث عن جزيره
تبحث عن ناس يقدرون نورها ،
تبحث عن حب . وعن أميره
تبذل من كنوزها الوفيره
المـال والمتاع
للظامئين والجياع
أما انا فقد بقيت في مسيرتي الطويله
زورق صياد بلا شراع
تنهبني الدروب والاصقاع
تسلبني الاماني الظليله
ما حيلتي ؟ ...
ليس مجال ها هنا لحيله
حاولت ان اقول للصحراء شيء
لكنها وكبرياءها تطاولا عليّ
جزيرة الجفاف يا لها جزيره
كم حرمتني من مياهها النميره

المفوضية اليمنية باديس ابابا — **احمد الآخذي**

نحو قصيدة الشاعرة فدوى طوقان « الى السيد المسيح في عيده » منكمشا على ذاته ، لانه فقد الرجاء في طبيعة الحركة الديناميكية التي تمثلها الاجيال ، وحين تقول في ختام هذه القصيدة « رحماك اجز يا سيد عنها هذي الكأس » تعطل العمل الانساني جميعه . ولولا انني اعلم ان فجيعة فدوى بكل شبر سليب من ارض الوطن لا تقل عن فجيعتها بسلب القدس لقلت ان هذا فهم « باكستاني » لقضيتنا الكبرى ، ولكن فدوى اعمق نفسا والما وشاعرية من ان يقال في قصيدتها هذا القول . بل ان فدوى ترد على لحظة الضعف في هذه القصيدة بلحظة اخرى تنسجم وطبيعتها . ففي قصيدتها « رسالة الى طفلين في الضفة الشرقية » ايمان انساني وقوة اصيلة في طبيعة الموضوع ، وفيها الى جانب ذلك كله بساطة مشرقة اخذت تنحسر عن كثير مما نقرؤه في الشعر الحديث ، وحين يبلغ القاريء :

يا كرم يا غزالتي
العسل الصافي المضيء في العيون
يوحشني كثير
والخصل الشقراء مثل القمح مثل موسم الحصاد
في بلادنا

توحشني توحشني كثير
اود لو اطير يا غزالتي
عبر المدى اود لو اطير

او حين تقول مخاطبة (عمر) :

هل ذاكر ايام كنت تطلع الجبل
تحمل لي اضمامة من زهر الجبل
قرن الغزال والشقائق الحمراء والزرقاء
والنرجس البري والشمر
هدية الربيع في بلادنا لنا ، هدية المطر
واعبر النهر .....

فانه يستطيع ان يقول : ان اشراق البساطة قد نشر خيوطه الضوئية على كل كلمة وحرف وان كل ما قلته عن حاجة الشعر الحديث الى النظر المعاد والتأمل والاصرار يذوب امام هذه العفوية الصادقة التي تظل تربطنا بحبال الاستجابة التلقائية . وسنظل دائما نحب هذه البساطة ما دام لها طابع الاصالة وشفافيتها ، ومن مظاهر الصحة والعافية ان لا يقضي « التركيب » في الشعر على هذه البساطة المحببة .

غير ان البساطة في قصيدة فدوى تتعرض لعنصرين يقللان من اشراقها ، اولهما « التمدد الكمي » والثاني : الميل الى « التبسيط » ، وهو عنصر يلتبس بالبساطة ولكنه يفترق عنها في ظهور الافتعال على السطح . واوضح مثل لذلك ـ ولعله المثل الوحيد في القصيدة ـ ما جاء في القسم الثاني منها ، حيث تقول الشاعرة :

احبتي الصغار خلف النهر يا احبتي

ـ التتمة على الصفحة ٧٧ ـ

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٢ ـ

***

ولا من أجل ان تقضي على منجزات الثورة العربية وحسب ، بل من أجل ان تقتلع كذلك جذور هذه الثورة نهائيا ؟..

اننا لا نمنع اطلاقا ان يكون لعوامل الثورة العالمية علاقة بثورتنا ، او تأثيرات متبادلة بينهما ، بل نحن نقول بأن الثورة العالمية وثورتنا العربية وحدة لا تتجزأ . ولكن هذا شيء ، وكون الاطار الذي توضع فيه حرب حزيران هو « اطار المنافسات والمنازعات الايديولوجية على الصعيد العالمي » شيء آخر وعلى خط آخر مناقض ، واقعيا ومبدئيا ، للحقيقة .

ذلك فضلا عما يشمّ في كلمة « المنافسات » من رائحة الفهم لقضية الصراع الايديولوجي بين المعسكرين بانها قضية « منافسة » على الدخول في المناطق الآفرو آسيوية ، ومنها المنطقة العربية !.. أي ربما يفهم من ذلك ان الكاتب يضع البلدان الاشتراكية وفي مقدمتها الاتحاد السوفياتي ، من حيث مساعداتها لحركات التحرر الوطني ، في مستوى واحد مع دول الامبريالية في تحريكها ومساعداتها للثورة المضادة في البلدان الافريقية الاسيوية .. فان كان هذا ما يعنيه ـ وقد نستبق ذلك ـ فاننا نرفضه من الاساس ، وليست بنا حاجة الى تعليل هذا الرفض لان شعوبنا والقوى الثورية والتقدمية فيها بالاخص تعرف هذه الحقيقة بوضوح لا مزيد عليه ..

وفي هذا السياق نفسه نأخذ على السيد دويتشر أيضا تصويره للهجوم السياسي والايديولوجي والاقتصادي والعسكري الذي تقوده الامبريالية الامريكية ، منذ بضعة اعوام ، في جزء كبير من آسية وافريقية ، بأنه يقابل « بالتراجع » من خصومه ابتداء من الاتحاد السوفياتي .. ان تصوير المسألة على هذا النحو ينبيء عن رؤية جانبية لها تهمل الجوانب الاخرى لحركة الثورة العالمية بشمولها .. وفي مجال هذه الرؤية الجانبية يصف المعارضة التي تواجه « تقدم » الامبريالية الامريكية والثورة المضادة الافريقية الاسيوية بأنها معارضة « غير مجدية » باستثناء الفيتنام ..

صحيح ان الامبريالية الامريكية وعناصر الثورة المضادة التي تقودها هذه الامبريالية ، تبدي في الاعوام الاخيرة ضراوة محمومة في الدفاع عن مواقعها وفي محاولة تخريب مواقع الثورة التحررية والتقدمية في اماكن عدة ، ولكن ليس صحيحا ـ في الواقع ـ ان هذه الضراوة وهذه المحاولة قد تخطتا موقف الدفاع ، وهو موقف يقابله من جانب الثورة العالمية بمختلف فصائلها تعزيز للمواقع الثورية وازدياد في التقدم الى مواقع جديدة ، واكتساب مستمر للمزيد من التجارب في سبيل النصر الذي تجري اليه حركة التاريخ بدفع قوي من ارادة الشعوب ونضالات القوى الثورية المتكاثرة المتصاعدة دائما ..

ان ذكر الفيتنام على سبيل الاستثناء غير صحيح . لان جدوى المعارضة في فيتنام ليس استثناء ، بل هو ظاهرة الجدوى الشاملة للمعارضة الثورية في صعيدها العالمي . ولولا ذلك لما استطاعت الفيتنام ان تقف هذا الموقف البطولي العظيم في ابطال جدوى هذه القوى الجبارة الهائلة التي تلقيها الامبريالية الامريكية في حربها العدوانية الضارية هناك ، فضلا عن المعارضة المتكاثرة المتصاعدة كل يوم لهذه الحرب الاثيمة في كل مكان من العالم ، وفي صفوف الشعب الامريكي بالاخص ، وهي في كل يوم تجتذب الى جيشها العالمي جحافل جديدة من المعادين للعدوانية هذه .

ومن غريب ما وقع فيه السيد دويتشر من الخطأ التاريخي بالاقل ، انه حصر زمن « الدفعة الاميركية في الشرق الاوسط » اي دخول الولايات المتحدة الاميركية الى مسرح هذا الشرق في ما بين العدوان الثلاثي على السويس والعدوان الاسرائيلي الاخير ... فهل صحيح هذا ؟.. هل صحيح ان اميركا كانت بعيدة عن مسرح التدخل في شؤون الشرق الاوسط قبل الحرب العدوانية على السويس عام ١٩٥٦ ؟.

لا نرجع في دفع هذا الخطأ الى الاثر الامريكي ابان حركة مصدق الشهيرة في ايران ، ولا الى وجود اميركا الفعال من وراء الستار في لجان حلف بغداد ، وما سبقه من محاولات لانشاء احلاف الدفاع المشترك ، ومن ظهور البيان الثلاثي لحماية اسرائيل في هذه المنطقة تحت ستار خادع .. فان هذه الاحداث كلها سابقة ، زمنيا ، لحرب السويس عام ١٩٥٦ .

اقول : لا نرجع في دفع هذا الخطأ التاريخي الى ذلك ، بل الى ابعد من ذلك كثيرا .. نرجع الى عهد ما بعد الحرب العالمية الاولى مباشرة . وبالتحديد الى العهد الذي صدر فيه صك الانتداب على بلدان الشرق الاوسط عن عصبة الامم .. فانه منذئذ كانت الرأسمالية الاميركية تبحث عن مكان لها في هذا الشرق ، وقد عملت بقدر ما تستطيع حينذاك لفتح الطريق الى اكثر من مكان هنا في بلادنا .. ذلك ان صك الانتداب نفسه قد انطوى على مادة خاصة تسمح للدول غير المنتدبة بنيل الامتيازات الاستثمارية في هذه البلاد . وكان واضحا ان المقصود بهذه « الدول غير المنتدبة » اميركا بالذات . بدليل ان هذه المادة قد حذفت من صك الانتداب حين خرجت اميركا من عصبة الامم في اوائل العشرينات ...

ويذكر السيد دويتشر المساعدة المالية الاميركية لاسرائيل . ونفهم من مجمل حديثه عن هذه المساعدة انها امر شبه خارجي ، أي انها من خارج طبيعة الوحدة العضوية بين اسرائيل والرأسمالية الاميركية ، فهو

يصورها وكأنها عمل من أعمال الاحسان اليهودي في أميركا ، بالرغم من ان صحة تحليله في سائر الحديث لحقيقة العلاقة بين اسرائيل والرأسمالية الاميركية .

وقد صدق السيد دويتشر بالقول ان اسرائيل كانت دائمة مناهضة للشيوعية . ولكن الاسباب التي ذكرها في تعليل ذلك غريبة عن الواقع ، ولا اقول بعيدة عنه وحسب .. فان مناهضة اسرائيل للشيوعية تنبع ، في الواقع ، من طبيعة كونها وليد حركة عنصرية فاشية مناقضة من حيث المبدأ للحركة الشيوعية ومبادئها الاساسية .. ومن هنا يبدو السيد دويتشر « غريبا » عن هذا الواقع لكونه ارجع الاسباب ، مثلا ، الى ما سماه « حركات معاداة السامية في الاتحاد السوفياتي اخر اعوام الستالينية .. والى « التشجيع الذي أظهره السوفيات للقومية العربية حتى في اكثر اشكالها تطرفا » .. ولكونه يردف هذا الكلام بقوله : « ولكن ينبغي الا ان ننسى ، من جهة اخرى، ان ستالين كان اشبين اسرائيل » .. وان « المندوب السوفياتي في الامم المتحدة كان اول من صوت على الاعتراف بدولة اسرائيل » .. ثم يقول : « ويمكن القول بأن ستالين ، اذا كان غيّر موقفه تجاه اسرائيل فلان هذه الدولة انحازت الى السياسة الغربية » .

لا بد من مناقشة هذه المسائل كلها بموضوعية ، لاننا صرنا الى مرحلة من مراحل قضيتنا مع اسرائيل تقتضي وضع هذه المسائل ، بالعقل ، في مكانها الحقيقي الموضوعي من تاريخ القضية :

١ ــ لقد سمى الكاتب دويتشر معاداة الحركة الصهيونية في الاتحاد السوفياتي ، معاداة للسامية .. والفرق ظاهر بين الامرين من حيث الواقع ومن حيث المبدأ معا . فمعاداة السامية غريبة عن مبادىء الاتحاد السوفياتي ، لانها معاداة لليهود كبشر على الطريقة النازية .. اما معاداة الصهيونية في الاتحاد السوفياتي فهي من طبيعة مبادئه كما ذكرنا من قبل .

٢ ــ اما تشجيع السوفيات للقومية العربية فصحيح، لانه امر مبدئي من حيث ان القومية العربية التي شجعها السوفيات انما تقوم على مبدأ الكفاح التحرري والتقدمي المناهض للامبريالية والاستعمار والرجعية ، والذي يدخل جزءا اصيلا في الحركة الثورية العالمية . ومن هنا يكون من المخالف للواقع قول السيد دويتشر ان تشجيع السوفيات للقومية العربية يشمل « اكثر اشكالها تطرفا » . لان التطرف المقصود هنا ما يتضمن النزعة العنصرية ، فكأنما السيد دويتشر يقصد باكثر الاشكال تطرفا من القومية العربية ما يكون منها معاديا لليهود .. في حين ان معاداة لليهود لمجرد كونهم يهودا مسألة غريبة عن القومية العربية ، غريبة عن تقاليد شعبنا العربي في مختلف عهوده وعصوره التاريخية ، بقدر ما هي غريبة عن ان تكون سببا لتشجيع السوفيات للقومية العربية .

٣ ــ ومسألة كون « ستالين اشبين اسرائيل » وكون « المندوب السوفياتي في الامم المتحدة كان أول من صوت على الاعتراف بدولة اسرائيل » فتلك مسألة طالما استمسك بها اعداء الاتحاد السوفياتي واعداء الثورة العربية معا . وجاء السيد دويتشر ، اخر الامر ، يضعها بهذه الصورة التي نرى ، فكأنما الاتحاد السوفياتي ، حين اعترف باسرائيل في الامم المتحدة ، قد فعل ذلك انطلاقا من دافع التأييد المبدئي لقيام دولة اسرائيل . وهذا غير صحيح اطلاقا . فلو كان الامر كذلك لما كانت مواقف الاتحاد السوفياتي منذ قيام اسرائيل حتى اليوم مواقف مناهضة لها ومؤيدة لكفاح العرب بمختلف اشكال التأييد المادي والمعنوي والعسكري .. لو ان اعتراف الاتحاد السوفياتي باسرائيل منطلقا من دافع تأييد مبدئي لقيامها لبقي متمسكا بهذا الدافع المبدئي ، ولبقي مسلكه معها منسجما مع هذا الدافع ، ولما حدث في مسلكه وفي موقفه ادنى تغيير .. ولكن الامر ليس كذلك ، فان الاعتراف كان ، في الظرف الخطير الذي حدث فيه ، موقفا اضطراريا لوقف النزاع المسلح في هذه المنطقة ، ولم يكن يعني اطلاقا موافقة مبدئية على اقامة هذه القاعدة الاستعمارية في قلب حركة التحرر العربية . على ان مواقف التأييد السوفياتي لهذه الحركة العربية التحررية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، بل منذ قيام السلطة السوفياتية في روسيا حتى الساعة، دليل كاف ودافع على ان اعترافه باسرائيل لم يكن يعني مطلقا ما يناقض المبدأ الذي تقوم عليه هذه المواقف .

٤ ــ اما ما جاء في كلام السيد دويتشر من القول « بأن ستالين اذا كان قد غيّر موقفه تجاه اسرائيل ، فلأن هذه الدولة انحازت الى السياسة الغربية » ففيه مناقشة من جهتين : **اولا** من جهة ان السياسة السوفياتية تجاه اسرائيل لم تكن تغييرا ، كما قلنا ، بل امتدادا لسياسة مبدئية ترجع الى تاريخ قيام الدولة السوفياتية في علاقتها مع حركات التحرر الوطني في بلادنا .. **وثانيا** من جهة الخطأ في تعبير « الانحياز » من اسرائيل للسياسة الغربية . فان هذا التعبير يتضمن دلالة تخالف بل تناقض النظرة الصحيحة التي ينظر بها السيد دويتشر الى طبيعة اسرائيل من حيث كونها بالاساس « مخفرا اماميا للغرب في الشرق الاوسط » على حد تعبيره هو نفسه .. فهل يعني ان اسرائيل « انحازت الى السياسة الغربية » غير النظر اليها انها لم تكن منحازة من قبل ، وانها شيء خارج عضويا وكيانيا عن الطبيعة الكيانية للامبريالية والاستعمار؟

وفي هذا السياق نفهم الدلالة نفسها من قول السيد دويتشر ان « الحكام الاسرائيليين كانوا مقتنعين بان كل حركة معادية لسوريا ومصر ستكون رابحة ، وان الدول الغربية ستنظر اليها نظرة عطف . وقد لعب هذا الحساب دوره في عزمهم القيام بهجومهم الوقائي يوم ٥ حزيران . كانوا على ثقة مطلقة بتأييد الاميركيين لهم معنويا وسياسيا واقتصاديا الخ » .

أليس يعني هذا الكلام ، بالنتيجة ، فصل العدوان

الاسرائيلي في ٥ حزيران عن تدبير الدول الغربية والاميركيين بالاخص ؟. وهل يفهم من هذا الكلام غير ان دور الاميركيين يقتصر على دور التأييد ، دون التدبير ؟..

وهذا المعنى نفسه يفهم من قوله « ان الغربيين بدافع احساس بالذنب ، **مؤيدون** للاسرائيليين ومناهضون للعرب الخ » ..

ثم ما معنى هذه المقارنة للقومية العربية بـ «القومية» الاسرائيلية في مقطع من حديث السيد دويتشر ، بالرغم من موقفه الايجابي تجاه القومية العربية وموقفه السلبي تجاه « القومية » الاسرائيلية ؟..

ما معنى ذلك ؟. هل هناك شيء اسمه « القومية » الاسرائيلية ؟ هل هناك شعب اسرائيلي في العالم بمعنى الشعب له ارض واحدة ، ومواطنية واحدة ، ومقومات وطنية ثقافية وتاريخية ونفسية ولغوية وجغرافية واحدة كشأن القومية العربية تجمع يهود العالم حتى يصح القول بوجود « قومية » اسرائيلية ؟..

ويقول السيد دويتشر ان الاسرائيليين ـ يقصد اسرائيل الدولة ـ لم يعرفوا ان يحدوا اطماعهم .. اننا نعجب كيف يقول مثل هذا الكلام كاتب ماركسي يفهم الاساس الطبقي الرأسمالي والاستعماري الذي تقوم عليه اسرائيل .. فهل يطلب منها ـ وهذا شأنها ـ ان تحد اطماعها ، ام يجب النظر اليها على انها قامت على العدوان لمقاومة حركة التحرر العربية ، وستبقى قائمة على العدوان ما دام لها وجود ، وما دام وجودها بطبيعته مرتبطا ارتباطا كيانيا بالامبريالية ، وما دامت حركة التحرر العربية ماضية في تطورها المناهض اساسا للامبريالية والمندفع نحو التحولات الاجتماعية الجذرية ؟..

***

كان لا بد من هذه الوقفة الطويلة مع السيد دويتشر، لان المسائل التي استوقفتنا في حديثه تدخل اليوم في صميم قضايانا القومية المصيرية . ولذا ارجو ان لا اكون تجاوزت حدود المهمة التي ندبتني اليها « الآداب » هذه المرة .

***

.. ويأتي مقال « نموذج المثقف الثوري » بعد هذا لنقرأه بتشوق ، فقد عرض فيه الياس سحاب طرفا مثيرا من سيرة ريجي دوبريه المثيرة ، تقديما لترجمة كتابه الذائع الشهرة « ثورة في الثورة » الى العربية . وليس عندي ما اعلق به على هذا المقال الشائق سوى تأييد ما أشار اليه الكاتب ، فأحسن الاشارة ، من تشديد المؤلف « منذ مطلع الكتاب وحتى صفحاته الاخيرة ، على ان المقياس الاساسي لنجاح اية نظرية ، هو نجاحها في ميدان التطبيق » .

ويعنيني في تأييد هذه الاشارة المفيدة ان الفت اذهان المعجبين بهذا التيار الذي يمثله دوبريه الى ما يقوله كاتب المقال بعدما تقدم : « .. ولذلك نراه ـ يقصد المؤلف ـ يركز كثيرا على شرح المخاطر العملية لنسخ التجارب الثورية نسخا آليا ، واستيرادها ـ كالبضاعة من بلد الى بلد .. ولذلك نرى دوبريه ، رغم اعجابه الشديد بنموذج الثورة الكوبية ، فانه لا يطلقه نموذجا صالحا للتطبيق في جميع انحاء العالم .

ومن هنا اتفق مع الاستاذ سحاب على ما يقوله في نهاية المقال : « ان اعظم ما يحتاجه المواطن العربي ، في مرحلة تكاثر شعارات الكفاح المسلح ومتفرعاته من حوله ، هو ان يمسك بزمام منهجية فكرية معاصرة ودقيقة تمكنه من ايجاد دربه وسط هذا الطريق الشائك ، فلا يكون الاندفاع العاطفي هو دليله الوحيد في الطريق » .

***

.. وما دامت كلمة « الابحاث » تتسع لكل ما ليس بشعر ولا قصص من عدد « الآداب » الماضي ، فانها تشمل ، اذن ، باب « قرأت العدد الماضي من الآداب » . لذا وجدت عندي ما يغريني في مراجعة هذا الباب :

لقد احسن الاستاذ جلال السيد مناقشة ندوة « الآداب » المنشورة في عدد كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٧ التي كان موضوعها « العرب بين العالمية والاصالة » ودار معظم الحوار فيها على قضية فلسطين والموقف من اسرائيل. فقد وضع الاستاذ السيد طبيعة اسرائيل الطبقية والاستعمارية في اطارها الواقعي وضعا علميا صحيحا ، وناقش مسألة مواقف الرأي العام العالمي من القضية مناقشة بصيرة صائبة . غير اني اختلف معه في مسألة واحدة ، هي تفسيره لموقف اليسار الاوروبي .. فقد وضع هذه المسألة في اطار عام مطلق ، ثم ابعد في التفسير الى أسباب نفسية وثقافية وحضارية . وهذا التفسير قد أدى به الى اخراج القضية من اطارها السابق الذي احسن وضعها فيه .

في رأيي انه ينبغي التفريق بين صنوف اهل اليسار الاوروبي اولا . فهناك اليسار الآخذ بنظرية الاشتراكية العلمية . وهناك اليسار الاشتراكي اليميني . فالاولون بعيدون ـ بالطبع ـ عن ان يشملهم تفسير الاستاذ جلال السيد من انهم « يقعون في موقف التعصب الحضاري والاحساس بتفوق الاوروبي على الشعوب الملونة ، ويحكمهم ايضا الشعور بالذنب تجاه اضطهاد اليهود الخ .. واما أهل اليسار الاشتراكي اليميني، فهم محكومون في موقفهم من اسرائيل للعامل الطبقي من حيث الاساس ، فانهم لا يزيدون عن كونهم فصيلة من فصائل البورجوازية الكبرى ذات الطبيعة الرأسمالية والنزعة الاستعمارية ، فهم ينظرون لحركة التحرر العربية وسائر حركات التحرر العالمية نظرة عداء طبقي أصيل ، ولذلك لا بد أن تجتذبهم هذه النظرة الى الوقوف بجانب اسرائيل بطبيعة الحال .

اما الدكتور عبد المحسن طه بدر ، في نقده القصص، فقد حكم على الادب العربي ، في مطلع كلامه ، بأنه « يبعد عن ارض الواقع والمعاناة كثيرا حتى يشعر القارىء بغربة

حادة وهو يمارس قراءته ، تتحول حين ينتهي من القراءة الى خيبة امل مرير » . ذلك بعد ان قرر مبدأ صحيحا ، هو انه « اذا كان مبرر وجود الادب ـ حين لا ننظر اليه على انه مجرد تسلية ـ هو معاناة الواقع والاحساس العميق الصادق به احساسا يكشف طريق المستقبل » .

ولكن ، بعد ان يصف ازمة المجتمع العربي في ظروفه الراهنة وصفا صحيحا كذلك ، يقرر ان « المثقف العربي ـ مهما بلغ اخلاصه وتفانيه ـ لا يستطيع الانسلاخ الكامل من مجتمعه ، فهو يعيش هذه التناقضات ويرغب في تجاوزها فيوفق احيانا ويستسلم في احيان كثيرة » .

اننا نلحظ تناقضا بين الحكم اولا على الادب العربي بأنه يبعد عن ارض الواقع والمعاناة كثيرا ، وبين الحكم له ثانيا ، من خلال حكمه للمثقف العربي ، بانه لا يستطيع الانسلاخ الكامل من مجتمعه ، وبانه يعيش تناقضات هذا المجتمع .. والحقيقة ان كل ما نجده في ادبنا العربي ، في هذه الحقبة ، من ظاهرات انما هو نوع من المعاناة للواقع العربي بايجابياته وسلبياته جميعا ، وليس في هذا الادب من ظاهرة غريبة عن هذا الواقع .

ولسنا نوافق الدكتور بدر ان المثقف العربي ـ ومنه اهل الادب بالطبع ـ هو بصورة مطلقة ، كما وصفه ، لا يعاني واقعه ، ولا يتحدث كثيرا عن مشاكل مجتمعه . اما ما يشير اليه من دعوة المثقف العربي لتبني تجارب الاخرين ، كالتجربة الفيتنامية او التجربة الكوبية ، فهو ليس دليلا على انه لا يعاني واقعه ، بل ان دعوته هذه ـ بالرغم من انني لا اقول بهذا التبني المطلق ـ ليست نابعة الا من قلب المعاناة الشديدة لواقع مجتمعه العربي ، فهو ـ لذلك ـ يتعلق بهذه التجربة او بتلك ، ولكن بعض المثقفين ـ وليسوا كلهم ـ يحتاج الى تعميق للبحث في ازمة مجتمعه ، وفي ظروفها المحلية والعربية والعالمية ، وفي الآفاق الحقيقية التي تتكشف عنها هذه الظروف في سبيل المستقبل . ومن هنا يقع هذا البعض في التبني المطلق لتجربات الاخرين بصورة تجريدية ، او عاطفية محضا .

***

.. أتراها مصادفة وحسب ان نقرأ في العدد الماضي من « الآداب » ثلاثة موضوعات تتحدث عن الشعر العربي المعاصر باتجاه واحد ، وبطريقة في التفكير تكاد تكون واحدة .. اعني بها نقد الاستاذ شوقي خميس لقصائد عدد كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٧ ، ومقال الدكتور جلال الخياط عن « العمل المتكامل والاداء المسرحي » ، ومقال الاستاذ مدني صالح عن « الادب المتكامل والشعر عند العرب » ؟.

هذه الموضوعات الثلاثة تتفق اتفاقا له دلالته العظيمة ، في رأيي ، بالنسبة لمقتضيات المرحلة التي بلغ اليها الشعر العربي وصار لزاما ان يتخطاها الى مرحلة اعلى منها ، حتى ان المقالين الاخيرين يتفقان لا في تعبير عنوانيهما تقريبا وحسب ، بل هما يتفقان كذلك حتى في تناول القضية الشعرية كما هي الآن في شعرنا المعاصر ، وكما ينبغي أن تتجه في تطورها الى مرحلتها العليا المطلوبة .

قلت أن لهذا الاتفاق دلالته العظيمة . وانا اعني كل ما يتحمله هذا القول من معنى . ولذا اجيب عن السؤال الذي سألت منذ قليل : هل هذا الاتفاق كان من قبيل المصادفة المحض ؟.. اجيب بأن الامر اعمق من ذلك واعلق ارتباطا بجذور المسألة الشعرية العربية ذاتها وبجذور الواقع الانساني والقومي لحياة مجتمعنا في الحاضر الذي نستشرف منه ملامح المستقبل .

ان الامر في هذا الاتفاق انما يعبر ، بصدق بالغ ، عن ان الفكر العربي بدأ يتحسس طريقه الى وجود جديد يوثق الصلة بينه وبين عصره ، وحضارة هذا العصر في مستوياتها الابعد من الظاهرات القشرية او الآلية او العبثية ..

الكتاب الثلاثة يعبرون ، كل بطريقته وبمستواه الخاص ، عن ادراك ان مرحلة الشعر الانفعالي ، حتى في صيغه الحديثة التي حطمت الاطر الكلاسيكية ، قد استنفدت مهماتها كاملة ، حتى اصبحت عبئا على ذاتها وتكاد تكون دورانا في الفراغ اذا لم تدركها دفعة ثورية تزيحها من ارض الزمن ليدخل الشعر العربي زمنه الجديد الذي ينتظره .

يقول الاستاذ شوقي خميس انه « اذا استطاع الشعراء ان يحملوا ثقافة عصرهم ، وان يدركوا على نحو ما هذه القوى التي تقف بجانب الانسان او تهدد حريته ، لن تصبح القصائد مجرد تعبير عن انفعالات الشعراء حتى وان كانت انفعالات بالقضايا العامة ، وانما سيوجد نوع جديد ـ من القصائد تقدم لنا شعرا يمكن تسميته بالشعر الموضوعي ، على اساس ان هدف الشاعر من القصيدة سيكون شيئا اكثر من مجرد التعبير عن انفعال ما وانما هو محاولة لاسر الحقيقة الموضوعية والخارجة عن ذات الشاعر والمثيرة لانفعاله الخ » .

واذا كان الاستاذ خميس قد رسم الاتجاه العام لما ينبغي ان يتخطى اليه الشعر العربي من حيث المضمون ، فان الدكتور جلال الخياط قد رسم للاتجاه المطلوب ملامحه البنائية التي نستطيع ان نلمح فيها الوجه الذي يحاول الاستاذ خميس رؤيته من بعيد .

فالدكتور خياط يضع اولا صورة المرحلة الشعرية القائمة حتى الان على « المحاولات التي ما زالت قصيدة واحدة ذات نفثة وجدانية واحدة وطابع رمزي ـ التزامي » . ثم هو يتبرم بأن يمضي ربع منذ بدأت هذه المحاولات ، وهي فترة طويلة جدا « بالنسبة لما وطأته المخترعات الحديثة وما أكدته الحرب العالمية الثانية بما خلفته من توقيت جديد » .. هي « فترة طويلة جدا لمحاولات شعرية لم تتعد القصيدة الواحدة ذات الصفحة

الواحدة ، ولم تتطور الى اشكال جديدة ، وانما كانت تدور في اطار واحد ، واختار بعض الشعراء عامدين ان يكونوا بين شقي الرحا : التوقيت الزمني ، المكثف ، والانبساط الذي ما زالت تحيا فيه كثير من مظاهرنا الحضارية ، فتحدثوا كثيرا عن الالم والضياع والغربة والمأساة » .

وينتقل الدكتور الخياط من وضع الصورة الكائنة كما هو وصفها الى وضع الصورة التي ينبغي ان تكون .. والصوره هذه التي تدعو شعرنا اليها هي ان يتخطى هذا الشعر وحدة الموضوع في القصيدة الواحدة الى وحدة العمل الادبي المتكامل الذي يتخذ شكلا مسرحيا او قصصيا او ملحميا ، او يرفض هذه الاشكال جميعا ليبتدع طريقته بنفسه » .. فقد « انتهت القصيدة الواحدة ذات النفثة الشعورية الواحدة لنحث السير نحو العمل الادبي المتكامل يبدعه الكاتب او الشاعر او الفنان بعيدا عما سيؤول اليه هذا العمل من نتائج او ما سيجمع حوله من معجبين مصفقين او حاقدين شامتين » .

على ان الدكتور الخياط ينصف القصيدة الواحدة ، رغم اعتقاده بانها قد انتهت بشكل من الاشكال .. ينصفها بالقول انها « ما زالت البذرة الاولى للعمل المتكامل السابق الذي يظلل الناس جميعا تحت افيائه » . وهنا يعني حقيقة هامه بشان القصيدة المعاصرة ، فانها « لا تظلل الناس جميعا تحت افيانها » لان « القراء الذين يفهمون هذه القصيدة الواحدة كالصوفية لا يكشفون ولا يتكاشفون ، وهكذا انحسر الشعراء ومريدوهم الى طبقة اكثر من خاصة ، واصبح للقصيدة الحديثة مناخ فريد من نوعه حتى بالنسبة للاداب الاجنبية ، ونأت كثيرا وحلقت وصعدت، وتبدو نهايتها غامضة اذا لم تعد وتبسط بتوقيت حاذق وتتخذ اشكالا من العمل المتكامل » .

لا يستطيع الاديب الحاضر عصره منا الا ان يجد في هذا المتجه الجديد طلائع افق جديد تشرق منه القصيدة العربية علينا بشموس تملأ وجودنا بفرح الحقيقة الحضارية الغامرة .

وعلى هذا النحو يتكامل المتجه عند الاستاذ مدني صالح . فهو يرى طلائع الافق الجديد قد ظهرت بالفعل ، فان الشعر العربي في رؤيته « قد بدأ اخيرا نحو ادب متكامل . في اداء مسرحي على نحو ما نجده عند شكسبير ودانتي وغوته وايليوت » . وهو يحدد شأن الادب التكاملي بأنه « أدب شمولي مثلما الحياة شمولية متكاملة ، وان هذا اللون من الادب يمثل معينا لا ينضب يستمد منه الخلاقون وحيا في الرسم والنحت والباليه والاوبرا والسمفوني والرواية وفي سائر نواحي الحياة » .. ثم ان « الادب التكاملي يتعدى الحقيقي الثابت الى متعدد الجوانب الزاخر بالظلال » .

وقد يبدو لي أن آخذ على معالجة الاستاذ مدني صالح كونها محشورة بالاحكام الخاطفة خطفا باطلاق صارم ، في حين ان كثيرا من هذه الاحكام يحتاج الى اكثر من مناقشة عاجلة هنا .. ولكن لا احب ان تذهب هذه الفرصة لاناقشه ، بطريقة خاطفة كطريقته بالاقل ، في امر الجواهري وحشره في زمرة الزهاوي وابن مالك صاحب الالفية في النحو .. فذلك ظلم فادح لشاعرية الجواهري ذات الطاقات العظيمة التي تشحن شعره لا « بجزالة اللفظ وسهولة العبارة وحسن الارشاد والموعظة الحسنة ومتانة الصيغة واشراق الديباجة ومطابقة القول لمقتضى الحال » !.. بل تشحنه بصنوف من التوتر النفسي حينا ، ومن القيم الانسانية حينا ، ومن الصور الشعرية ذات الابعاد الفسيحة والعميقة في آن اكثر الاحيان .. ما ادري لعل الاستاذ الكريم بعيد العهد بشعر الجواهري ، او لعل اسم الجواهري جاء في مكانه من المقال بنحو من غير القصد ..

***

واخيرا : ليس من الوفاء ان ننتهي من هذا الشوط ولا نقف وقفة تأمل وجداني عميق وشجي امام ذكرى سميرة عزام ونحن نعيش هذه اللحظات الخاشعة مع صورها المنتشرة ظلالها بحنان في معرض فسيح من العدد الماضي « للاداب » .. صورها وطنية ومفكرة وأديبة مبدعة وانسانة رضية بهية الرؤى. تحية اليك ، سميرة ، من عبق الذكرى التي ننشق في أدبك الباقي .

حسين مروه

قريبا

الظل في الرأس

قصص قصيرة

عبد الرحمن مجيد الربيعي

صوت جريء من العراق في مجموعته القصصية الثانية التي تساهم مساهمة عالية في بناء القصة العراقية وتطورها .

منشورات المكتبة العصرية ـ بيروت

توزيع مكتبة النهضة ـ بغداد

القصائد

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٥ ـ

***

عندي اقاصيص لكم كثيرة
غير حكايا سندباد البحر ، غير قصة الجني والصياد
وقمر الزمان والاميرة

عندي اقاصيص هنا جديدة

فقد استكشفت الشاعرة ان الفذاء الذي يزود بـه خيال هؤلاء الصغار لم يعد الحكايا الخرافية ، وانما حكايا من الواقع تفوق في روعتها (الوحشية) احداث القصص الاسطورية ، وعند هذا الحد كانـت الشاعرة تسير ببساطتها الى الذروة ، وفجأة آثرت الهرب من الموضوع ـ مراعاة لمقتضيات التبسيط ـ وقالت :

أخاف لو اروي لكم احداثها
اطفىء في عالمكم ضياءه
اهز في جزيرة البراءة
رواسي الامان والسكينة ...

ولو استمرت في بساطتها كما بدأتها لتصورت أي ضياء بقي في عالم اطفال يعيشون في المخيمات تحـت ضربات الجوع والبرد والصقيع وأي أمان وسكينة بقيـا في نفوس من رأوا من حولهم مناظر الدماء وآثار النابالم ... اذن ان الخوف التقليدي على براءة الاطفال تبسيط للواقع ، وتمسك بحبال المعتقد العام عما يحسه الاطفال في عالمهم من ضياء وسكينة وأمان . ورغم ذلك كله فان هذا التبسيط لم يحل بين الشاعرة وبين التمسك بالرجاء، وسر هذا الرجاء في تعبيرها عن الاطفال باسم « كنزنـا المذور » وبذلك استطاعت ان تسيطر على نهاية القصيدة وتتحكم في المشكلة على نحو انساني .

واذا كانت فدوى تتقدم من المشكلة التاريخية فـي اطارها السياسي الواقعي بخطى مباشرة، وخواطر مألوفة، وسرد حكائي عامد ، فليس بالحتم الضروري ان تكون هذه هي الطريقة الوحيدة في المعالجة ، ذلك ان في شعـراء هذا العدد ثلاثة يعالجون زوايا اخرى من المشكلة بطـرق متفاوتة وهم ادونيس رصلاح عبد الصبور ومحمد عفيفي مطـر .

وتمثل الانتقالة من قصيـــدة فدوى الى قصائـد أدونيس العشر طفرة بعيدة المدى ، بعدَ ما بين البساطة واعقد التركيب . ولذلك كان شعر ادونيس يتطلب ، اكثر من سواه ، ان يتحول النقد الى تفسير ، ومع ان هـــذا صرف للنقد عن حقيقة غاياته ، فانه يكاد يكون امرا لا مفر منه في مثل هذا اللون من الشعر . ولنأخذ مثلا تفسيريا واحدا لقطعة صغيرة لا يختلف القراء حـــول مدلـولات رموزها وهي قطعة (الشهيد) :

حين رأيت الليل في جفونه الملتهبة
ولم أجد في وجهه نخيلا
ولم أجد نجوما
عصفت حول رأسه
كالريح ـ وانكسرت مثل قصبه .

الليل : هو الظلام والسكون والنوم (الموت)، وجفونه الملتهبة هي رمز الثورة التي سيطر عليها ذلـــك الليل . والتخيل : الحركة والاهتزاز (حركة الحياة) والنجوم هي الضوء والعينان (اشراق الحياة ولألاؤها) . عصفت حول رأسه كالريح (ادركتني ثورة الحزن) . والقصبة : الخواء والهشاشة وعدم الصمود في وجـــه الريح . والمسـرح المكاني فضاء منبسط او صحراء أي حيث يجتمع الليـل والنخيل والنجوم (لان الشهيد يمثل جـــرأة البداوة) وانكسرت مثل قصبة (كتلك القصاب التي تنبت علـى حفافي الانهار ، مهد الحضارات) وبين صورة النخلـــة والقصبة تقابل مقصود ، وبين ان يعصف الانسان كالريح ثم ان ينكسر مثل قصبة تقابل آخر ، تمثل فيه الـذات طرفين متعاقبين من الشدة والخوائية . وللقارىء الحق في ان يسأل : ايهما هو الشهيد ؟ اذاك المجندل في الارض العراء ام الذي انكسر مثل قصبة ؟

وانا اقر ان استكشاف الرموز في هذه القطعة عمل لا يحتاج تأملا طويلا ، غير ان شعر ادونيس ليس على هذا المستوى من السهولة دائما لان التركيب فيه قد يكون على عمق طبقتين او ثلاث او اكثر . ومن ثم فان المضي فـي تفسير هذه القطع لا يتحمله هذا المقام الذي يستـدعي النظر في عدد غير قليل من القصائد . لهذا اكتفي بطرح سؤال قد يثور في نفس من يقرأ هذه القصائد العشـــر مجتمعة في نطاق : هل هذه القصائد تمثل حلقات مترابطة او ان كل قصيدة مستقلة عن اختها ؟ والجواب عـن هذا السؤال تصوره محاولتي لايجاد وحدة بينها ، فقد قرأتها كثيرا واوليتها من التأمل ما يعين على تلمس عناصـرها المشتركة ، وبعد ذلك قرأتها في ديوانه الذي صدر اخيرا بعنوان « المسرح والمرايا » فوجدتها جميعا تقع تحت فصل واحد عنوانه « وجه البحر » ثم نظرت في ترتيبها بمجلة الآداب فوجدتها قد خضعت للتقديم والتأخير لـــدى مقارنتها بالترتيب الذي جاءت عليه في الديوان . بل ان القطعة التي اولها « قبل او بعد يولد الكون ... الخ. » قد وضعت في الديوان تحت عنوان مستقل بينما ادرجت في المجلة تحت عنوان آخر . لذلك كله رأيت الجواب عن السؤال المتقدم ينقسم في شقين : اولهما ان كل قطعـــة منها تؤدي حقا وحدة قائمة بذاتها . فالقطعة التي تتحدث عن الشهيد تصلح ان تنشر وحدها ، وان تكون لها ـ على قصرها ـ خصائص الوحدة المتكاملة التي تثير ايحـاءات لا علاقة لها بما يجاورها من قصائد . ولهذا الاعتبار عيب مؤقت وهو ان اخذ الوحدة الواحدة قد يجعلنا نكثـــر الدلالات للرمز الواحد ، بينما لو درسنا هذا الشعر فـي نطاق « المسرح والمرايا » لاستطعنا ان نحدد دلالة الرمز

بدقة . هذه قطعة عنوانها « المئذنة » :

بكت المئذنة
حين جاء الغريب ـ اشتراها
وبنى فوقها مدخنة .

هل تصور الصراع بين الحضارة الروحية والحضارة المادية ؟ او تصور ضياع المقدسات في يد الصهيونيين ؟ ايا كان الامر فان تقرير ذلك كان ممكنا لو انها قرئت في جوها العام ، فذلك وحده هو الذي يرد دلالات الفروض كلها الى دلالة واحدة .

والشق الثاني من الجواب ان هذه القصائد ـ على استقلال كل منها ـ تمدنا بايحاءات مشتركة . لا لانها تنبع من نفس واحدة وحسب ، بل لانها تكاد تتناول المشكلة التاريخية من زاوية واحدة هي اللقاء بين الشاعر وامته . فهنالك « التاريخ » الذي يحاول الشاعر ان يفتته ويلمه وينقيه ويرتفع اليه على « موج يعلمني ـ ان الاقاصي مدار الحلم والسفر » . ولهذا التاريخ نفق طويل يمتد فيه شيء مزين حاملا « طفله من النفط » والتاجر المسموم يغنيه ، ولكن هذا الشرق قد افاق على ان شيخه ـ اي الغرب ـ « غير معصوم » فلهذا حول النفط الى حريق سيجعل الشرق والغرب قبرا واحدا . واذا التفت الشاعر الى التاريخ رأى دمشق فخاطبها في حنين الابن الغريب الذي يشعر ان امه قد خذلته الا انه غير يائس من امرها لانها « تنتظر الجنين » . وهذه الالتفاتة ايضا تجعله يرى « بلاد الخليفة والتابعين » ليؤكد ايمانه بأن ايامها الجديدة ستغير الاسماء القديمة، اذ سيصبح التحول ربانا يوجه تاريخها الجديد . ويتراكم التاريخ امامه فيحس انه قد اصبح ركاما يحول بينه وبين امته :

كيف امشي نحو نفسي ، نحو شعبي
ودمي نار وتاريخي ركام ؟

غير ان اليأس ايضا بعيد عنه على نحو سلبي : اليس التاريخ والحضارات مرايا تتكسر ؟ لقد وقع الشاعر في ورطة الا انها ورطة عارضة ، ذلك ان الشاعر لم يضع ايمانه في التاريخ ـ من حيث هو ـ وانما في اليقظة الجديدة ، تلك اليقظة التي تسلط على التاريخ شعاعها القوي ، وتنتظم هذه المقطعات الى جانب فعل الزمن التاريخي : فمن وراء سبات الفي تظهر الشمس تقتل شيخ الرمل والجرادة والزمن التاريخي المتيبس المتفضن . وفي هذه الولادة يشب « غصن » زمني جديد سيطل وقد تمثل « وجوها غريبة منذورة » . وستنفتح سرة الياسمين (دمشق) عما استكن في ذاتها المغلقة ، وسيتحول الوجه المفلق الدفين الذي تحمله بلاد الخليفة فيصبح كوكبا . ولن تقف المسافات الطويلة بكل ركامها واحجارها وعوائقها دون الشاعر لانه مؤمن بهذه اليقظة :

لا ، دعوني
انني اسمع اصواتا تغني في رمادي
انني المحها تمشي كأطفال بلادي

فهذه القطع ـ رغم استقلال كل واحدة منها ـ تدور على مصراعين ينفتحان وينغلقان بعنف او بهدوء ، ويمثلان بذلك موقف الشاعر من الزمان التاريخي واليقظة الجديدة في الزمن . وبما انه فرد في مقابل مجتمع فلا بد ان يكون لهذين المصراعين صفحتان من التناوب بين اتجاه الشاعر متغلغلا في التاريخ من الماضي الى الحاضر ، وبين حركة الامة نفسها في ذلك الاتجاه . وهو شيء لم احاول الكشف عنه ذهابا مع دواعي الايجاز .

وينحل هذا التركيب المتراكب المعقد فاذا هو عند صلاح عبد الصبور تركيب ثنائي عنصراه الفرد والزمن ، بل قد تحله الى ما هو أبسط من ذلك بحيث يصبح « الانسان الفرد في الزمن الآني » . ذلك ان قصيدة (رؤيا) تمثل عبور الفرد في ثلاث لحظات ، ففي اللحظة الاولى (عند منتصف الليل) يستعيد تاريخه (الفردي : وتذكاراته ويستيقظ في وعيه كل ما كان راقدا وتتحد طفولته وصباه وكهولته الحكيمة الحزينة ، وينسج من كل ذلك حبلا من الزهو والضياع لكي يرتفع به لمعانقة الدنيا. ثم تدركه لحظة التلاشي فتنحل اعضاؤه صفاء وهيولي ، ويتحول الى موسيقى سحرية هائمة في الوديان ، ويتحد بالزمن بعد ان كان منفصلا عنه في اللحظة السابقة ، بل يصبح حسا زمنيا . فاذا انفتح باب الكون الشرقي واطلت الشمس انفصل عن الزمن من جديد ، وتعرى تحت النور، فاذا هو في (اللحظة الثالثة) على حقيقته الآنية التي لا تسنده فيها أي حبال ، ويعود في اليقظة الصاحية (دون تذكارات وتاريخ وطفولة وصبا) فارا تحت مستوى اقدام المارة ، منزويا في رف « في مخزن عاديا ت » .

تلك هي صورة القصيدة ، فاذا تذكرنا ان اللحظة الثانية هي فترة حلمية مطلقة في حياة ذلك الفرد ، رأينا ان القصيدة تصور ازدواج الشخصية الفردية في زمنين: الزمن الذي يكون فيه الفرد مع ذاته والزمن الذي يكون فيه مع الناس . والفكرة في القصيدة ليست جديدة ولكن هذا لم يؤثر كثيرا في كيانها العام ، لان تكاملها يجعل نموها طبيعي الحركة في الانتقال من التجمع الذاتي الى التلاشي الحلمي الى التقلص الانكماشي . ويجب الا نقلل من قيمة الحركة الثانية التي اضافها الشاعر الى مصراعي الازدواج ، لانه يعد الاتحاد بالزمن نجاته الوحيدة من الحالتين الاخريين . وقد يقال في القصيدة انها رقدة فرويدية في قوقعة الذات ، وانها « استحالة » تذكر باستحالة كافكا الى حشرة ، وانها صورة مرضية تمثل انسحاق الثقة في مواجهة الواقع ، كل ذلك وغيره قد يقال ، ولكن ذلك لا ينفي انها قصيدة عميقة متكاملة ، وان استكشاف اعماق الذات هو خير وسيلة للسير في طريق الصحة النفسية .

وتتغير المشكلة عند محمد عفيفي مطر في طبيعتها واطارها : فهي من حيث طبيعتها ليست مشكلة فرد في

مجتمع او فرد في لحظات زمنية مختلفة ، وانما هي مشكلة « الفنان الزائف » في ذاته . والاطار الذي توضع فيه هذه المشكلة هو الاطار المنطقي ، فعنوان القصيدة « مصادرات على مصير » مستعار من الاصطلاح المنطقي القديم « المصادرة على المطلوب » والفنان الزائف (او الشاعر) يرفضه « الخلاء والملاء » ويطرح بين حجة الصمت وحجة الفناء (أي بين قرني المعضلة المنطقية) وقصائده المعادة وما اشبهها في التفاهة « اقيسة منتجة في منطقة البلادة » وهكذا . ولا ضير علينا ان نقول ـ متبعين هذا المصطلح ـ ان القضية المطروحة هنا هي « بقاء غير الاصلح » ـ كيف جاز لهذا الزيف الفاضح ان يبقى بعد ان اصطلحت عليه الاضداد ؟ « يرجمه الكفر ، تميته العبادة ـ يرفضه المزدحم المليء والخلاء » . والجواب على ذلك ان الاضداد فيه ايضا ، فهو مؤتمن على الحريم (خصي) ومع ذلك «عالم في كيمياء الجنس»، يدخل المدائن الزانية ويدونها طاهرة في كتب الانساب :

ادخل متخما بالطبع في ازمنة المجاعة
اجعلها حديقة مثمرة او غيمة ممطرة في كتب
التاريخ والشريعة .

وسلاحه الوحيد للنجاة من كل المصاعب التي واجهته في طريقه هو « التسلل » الهارب من وجه الجوع والرعب والمقاضاة والاسئلة المحرجة ، لانه يسلك المداخل الفرعية، ولا ينازع احدا في الغنائم ولا يدخل في المحالفات والمساومة . هذا الجبن الذي جعله يسير مائل الرأس محاذرا لم يردعه عن ان يقسم في النهاية :

انه سوف يموت غيلة
وانه سيبدأ العبادة

وانه سيأخذ الصفرة من وجوه جائعيه كي يفرشها سجاده

ان قصيدة مطر تهويلية وفيها تكرر للمناظر في صور متنوعة ، وفيها الى جانب ذلك ـ رغم النقمة الشديدة على الزيف ـ عطف خفي على هذا الاضطرار الذي يدفع اليه الرعب والجوع ، ولولا ان اكون واهما لقلت ان فيها مقايسة بين حال الشعر وحال الصحافة لان الاول يضطر الى السير لواذا في زمن الجوع فيجد الناس يصيحون في وجهه اما الثانية فلا . غير اني لست واثقا من ان الشاعر اراد مثل ذلك . ومجمل القول ان الشاعر لو كف قليلا من الحواشي الداخلية في المبنى العام لكان استغلاله لمصطلحه الثقافي كفيلا بتحقيق الاكتناز والوحدة في قصيدته ، ولما تبددت نقداته اللاذعة في اطار طويل . ان القضية التي بسطها منتجة، ولكن الزيف عقيم لا ينتج .

بقيت اربع قصائد اقف عندها وقفات سريعة اولاها قصيدة « خواطر مدينة قريبة من البحر » لسعدي يوسف ، وهي اغنية امرىء يشعر بالغربة ، جاءت في صورة عتاب ذاتي يستنكر الشاعر فيه على نفسه الاستقواء المفتعل . وفي الفاظها حسرة الحنين ولوعته ، وصور من الذكريات دون اسراف في ذلك كله ، فهي خفقة قلب ، ولكن لو كانت صورها والفاظها في مثل بساطة فدوى لكانت اوقع في النفس . وسعدي يوسف شاعر قادر على التمرس بالمشكلة الجماعية ، فيما قرات له من شعر ، اما الخفقة الذاتية الرومنطيقية فربما كانت عسيرة على قلمه .

والقصيدة الثانية هي قصيدة « وجه اختي » لبلند الحيدري ، وهي مرثية القيت في مهرجان سميرة عزام التأبيني . والشكل في هذه القصيدة مقدر على نحو تقريري صارم في ثلاث خطوات : الامل في الغد ـ خيبة الامل فيه لانه طلع بفقد اخت ـ عودة الامل فيه لان المرثية لم تمت ولن تموت :

ما دام حرف اخضر يومي وشمس تولد
ما دام في الدنيا غد

وتقرير الشكل (المسبق) على هذا النحو يتطلب شيئين : تنويعا في داخله وطولا مناسبا يسمح بالتحول من خطوة الى اخرى ، وهذا ما لم يتوفر في قصيدة بلند . ولقد حاول بلند ان يعوض عن هذين العنصرين بالقوة في الفقرات القصيرة وبالتفاؤل الختامي ، فاستوى له بعض ما اراد ، غير ان قصر المدى بين الحزن العميق والتفاؤل قد خفف من تيار الحزن وجعله واجبا انسانيا. ولا ريب في ان الموقف الذي اختاره بلند ليس سهلا في طبيعته ، وخاصة حين شاء تناوله على نحو مباشر .

وتشترك القصيدتان الباقيتان « جبل النار » لمحمود علي السعيد و « واكملوا اللوحة » لمحمد عزالدين المناصرة في طبيعة الخاتمة ، وهي الخاتمة التي تعترض في حلق الاستساغة كالشجى في حلق الطاعم، ثم تفترقان بعد ذلك . فقصيدة « جبل النار » تحية لجبل النار ، محض تحية ، فيها بعض معجم الشعر الحديث ولكن صيغتها تقريرية ولو شاء صاحبها ان يجعلها اضعاف ما هي عليه لفعل ، لان مثل هذا الموضوع لا يكون بهذه الطريقة قصيدة . واما قصيدة « واكملوا اللوحة » فانها اوهام حول رسام من الارض المغتصبة حطم العدو لوحاته فلم الالوان من الزهور البرية وكتب وصية لا معنى لها . والذي يريد الشاعر ان يقوله ـ فيما اعتقد ـ ان الرسالة ستظل متصلة ، وان اللوحة « الناقصة » ستكمل في الغد ، فكرة جميلة ولكن اداءها كان قاصرا عن الوفاء بحقها من الجودة والجمال .

احسان عباس

لجميع مطبوعاتكم :

دار الغد
للطباعة والنشر

بيروت ـ تلفون : ٢٣٠٥١٢